سلسلة رسائل العفو وإصلاح ذات البين

الرسالة الخامسة

العافون عن الناس

تأليف

د / ناصر بن مسفر الزهراني

الرئيس التنفيذي للجنة العفو وإصلاح ذات البين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

منزلة العفو في الدين

العفو كلمة جميلة، وعبارة محببة، لفظ يبعث الدفء، وأحرف تنشر الحنان، هذه الصفة الجميلة، والخلة الحميدة، هي أفضل الصفات، وأجمل السمات، هي رائدة الأخلاق، وسيدة الآداب، وملكة المثل، ولذلك تسمى بها الكريم، واتصف بها العظيم، فهو العفو الغفور، اللطيف الرحيم، الجواد الكريم، يعفو عن المذنب، ويغفر للمسيء، ويتجاوز عن الخطائين، لا أعظم منه عفواً، ولا أكبر منه مغفرة، ولا أوسع منه رحمة .. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ

غَـفُورٌ ﴿٦٠﴾ الحج: ٦٠ .

إن مـن لطـف الله جـل وعـلا بعبـاده، ورحمته بخلقـه، أنـه يعـاملهم بعفـوه، ويقابـل جهلهم بحلمـه، وذنـوبهم بمغفرتـه، وتمـاديهم بإمهاله، ومجاهرتهم بستره، وإعراضهم بلطفـه، وجحودهم بإنعامه، وبخلهم بكرمه، وكفرانهم بإحسانه، بل وجرأتهم عليه جل وعـلا بـصبره عليهم، كما في الحـديث : «**لا أحـد أصـبر عـلى أذى سمعه من الله يدعون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم**» [أخرجه مسلم : ٢٨٠٤]، فسبحانه ما أعظم فضله، وأكبر جـوده، وأجـل عفـوه، وأحـسن إحسانه، وأبدع امتنانه، وأوسع غفرانه، يبـارزه

العبد بالذنوب، ويجاهره بالمعاصي، ثم يناديه العفو الغفور نداء لطيفاً رفيقاً رحيماً : «**يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي**» [أخرجه الترمذي : ٣٥٤٠ وحسنه]، ويقول تعالى : «**يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم**» . [أخرجه مسلم : ٢٥٧٧].

ثم ينادي المذنبين والمفرطين، بل والمسرفين في المعاصي نداء العفو، ويدعوهم دعاء المغفرة، مطمعاً لهم في رحمته، مرغباً لهم في عفوه، مبيناً لهم عن كرمه : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣ .

إن من فضله جل وعلا أن رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق عقوبته، وإلا لما استحق أن يظل على ظهر الأرض من أحد : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ النحل: ٦١.

ويقول تعالى ممتناً على عباده بتوبته عليهم وعفوه عنهم، مع علمه بكل ما يفعلون : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥ ﴾ الشورى: ٢٥ . لقد تنزل القرآن الكريم يحمل في طياته عبقاً من أريج **العفو** يسبي النفوس، وأريجاً من شذا الصفح يروي

القلوب، فها هو – جل وعلا – يخاطب نبي **العفو** والصفح والرحمة بأن يتمثل **العفو**، ويمضي بالغفران ، يقول تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٩٩، وهذه أجمع آية لمكارم الأخلاق .

ويقول تعالى : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ويخاطب الله تعالى نبيه آمراً له **بالعفو** حتى مع ذوي الإساءة وأهل الخيانة، فما بالك به مع المسلم، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ المائدة: ١٣.

ثم يأتي الحث على **العفو** في آية عظيمة المبنى، جليلة المعنى، خلابة الفحوى، فما بالك بأمر يتكفل الله تعالى بأجره، ويجعل ذلك الأجر مفتوحا دون حد أو قيد ليترك للنفس تخيل عظمة هذا الأجر الذي تكفل به أكرم الأكرمين، فيقول تعالى﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الشورى: ٤٠.

وهذا الأسلوب البديع الذي يفتح آفاقاً من تخيل الجزاء لا يأتي إلا في الأمور الجليلة

القدر، البعيدة المنزلة **كالعفو**، وكصوم رمضان ؛ إذ يقول تعالى في الحديث القدسي : «**كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» . [أخرجه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١) واللفظ له]

ثم تأتي الإشارة القرآنية والتذكرة الربانية مجلية أمراً جميلاً، ومعنى جليلاً، وهو أن نيل عفو القدير جل وعلا، والفوز بمغفرة الرحيم طريقه **العفو**، فيقول تعالى : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: ٢٢ ، أي من أحب أن يغفر الله له ويعفو عنه فليغفر للناس وليعف عنهم، فما بالك إذا كان **العفو**

عن الناس هو عفو من الموت، وصفح في القصاص.

ومثل هذه الآية في التلميح بالعفو والوعد بالتجاوز عمن عفا وتجاوز قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ النساء: ١٤٩.

ويا الله ما أبدع ختام الآية بقوله : ﴿قَدِيرًا ﴾ فلم يقل رحيماً أو لطيفاً وما إلى ذلك، ولكنها الإشارة إلى الميزة الأعلى للعفو، وهي العفو عند المقدرة .

ويبين تعالى أن العافين عن الناس،

والكاظمين الغيظ هم أولو التقوى الذين وعدوا بجنة عرضها السماوات والأرض: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ آل عمران:١٣٣-١٣٤.

وإن من أعظم أنواع **العفو** هو ما يمن به الله على المسلم من **العفو** عن مسلم وإعتاق رقبته، وإنقاذه من الموت؛ إنه **العفو** الجليل العظيم الذي يحيي به العافي نفساً وكأنما أحيا الناس جميعاً ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ المائدة: ٣٢.

ما ظنك بمن يحتسب الأجر، ويقبل بصفة العظماء والنبلاء بل صفة الأنبياء بل صفة رب الأرض والسماء صفة العفو والتسامح؟ ولذلك فإن العفو منزلة كبيرة، ورتبة سامية لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، وأفذاذ البشر . وتأمل هذه الآية البديعة يقول تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ الشورى: ٤٣ وعزائم الأمور صفات المصطفين من الرسل عليهم السلام.

قال تعالى﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الأحقاف: ٣٥ . أما من انتصر و أخذ حقه ولم يعف فقد قال تعالى عنه ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ

ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ الشورى: ٤١ ، فهو رفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة ولم يمدحه بمنقبة بخلاف **العفو** فها هو يعلن بفضل أهله فيقول تعالى ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ النحل: ١٢٦، وقال الحكماء: (إذا انتقمت فقد انتصفت وإذا عفوت فقد تفضلت).

إن **العفو** في القصاص محمدة للإنسان في الدنيا يشكره الناس عليها ويدعون له ويشيدون بعمله ويحترمون إنسانيته وإنه رفعة له في الآخرة حيث يعفو الله عنه ويرفع مقامه،

ويعلي درجته . إن المسلم الموفق هو الذي يأخذ بهدي حبيبه ﷺ فهو القائل: «**ما زاد عبد بعفو إلا عزاً**» [أخرجه مسلم : ٢٥٨٨] ، وهو القائل : «**من نفَّس عن مؤمن كربة نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**» [أخرجه مسلم : ٢٦٩٩] ، وفي الحديث الصحيح : «**ما رفع إلى رسول الله ﷺ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو**» . [أخرجه ابن ماجة (٢٦٩٢) وصححه الألباني].

وهو ﷺ الذي ضرب أعظم الأمثلة في العفو حينما قال لمن حاربوه وآذوه وقتلوا أصحابه، وشردوا أتباعه، وحاربوا منهاجه، قال لهم بعد أن أظفره الله عليهم : اذهبوا فأنتم

الطلقاء.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال لـهم : «**لا أقول لكم إلا كما قال يوسف لإخوته** ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ ﴾ يوسف: ٩٢ **اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [أخرجه الطبراني في تاريخه (٢/ ١٦١) عن قتادة السدوسي مرسلاً]، فهو ﷺ يذكر بمنهاج الأنبياء، منهاج **العفو** والحلم والتسامح، فهذا يوسف بعد أن كاد له إخوته وأرادوا قتله ووضعوه في غيابة الجب ليموت هناك، إلا أن الله أنقذه، ثم حين كتب الله له العزة والتمكين وأظفره على إخوته وأعزه عليهم عفا عنهم، بل تلطف في الحديث معهم حتى لا يحرجهم أو

يجرح مشاعرهم، قال تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف: ١٠٠. على أن الشيطان لم ينزغ إلا بين إخوته، ولكنه الأدب النبوي الرفيع .

ولقد كان أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام رائد الحلم والعفو والتسامح ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ التوبة: ١١٤.

ولقد اشتهر أناس بالحلم والعفو

والتسامح، ورفع الله قدرهم به، وأصبحوا مثلاً أعلى يتحدث الناس بأخبارهم في كل مكان وزمان، ومنهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ، ومنهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ومن الذين اشتهروا **بالعفو**، الخليفة المأمون – رحمه الله– الذي كان يقول : لقد حبب إلي **العفو** حتى ظننت أن لا أوجر عليه. أي: إنه أصبح عادة له : ومن الذين اشتهروا **بالعفو** وملكوا به الناس في العصر الحديث **الملك عبدالعزيز آل سعود (رحمه الله)**.

وهكذا يظل **العفو** خلقاً جميلاً جليلاً ومنزلاً سامياً من وصل إليه وتزيا به وتعطر

بأريجه ظلت آثاره المباركة تفوح بشذاه على مر الزمان، ووالله لقد كنت أغبط من قبل بالعفو في القصاص وأُكْبِره وأرى أنه أخذ بسبب من أعظم أسباب العظمة، وفتح لنفسه باباً من أعظم أبواب الأجر والعطاء والرحمات الإلهية، والنفحات الربانية وإذا كان الله تعالى قد عفا عن رجل ليس له من العمل شيء إلا أنه كان يداين الناس فيصبر عليهم ويعفو عن معسرهم، ويقول تجاوزوا عنهم لعل الله يتجاوز عنا فيقول الله تعالى: نحن أحق بذلك منك أدخلوه الجنة كما في الحديث الصحيح [انظر: البخاري: ٢٠٧٧، ومسلم: ١٥٦١] فما بالك بمن

يعفو ليس في دراهم معدودة بل في رقبة بحبل الموت مشدودة.

وإذا كان الله تعالى غفر لبغي في كلب سقته، وأدخلها الجنة، فما بالك بمن ينقذ إنساناً بل مسلماً يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم مع ذلك يحتسب مصيبته في فقد حبيبه عند ربه جل وعلا، ففاز بأجر العفو الجليل، وفاز بأجر الصبر الجميل.

ومن أعظم ما يلفت النظر في العفو أن جعله الله خلقاً مفروضاً داخل الأسرة المسلمة بين الأب وأبنائه، والزوجة وزوجها، وهذه من

روائع هذا الدين فإن البيوت إذا قامت على التسامح، وشيدت على العفو، وزينت بالصفح، وتعطرت بالتجاوز والتغافر، ساد فيها الحب، وعمرها الهدوء، وخيمت عليها السكينة، وداعبتها الأماني، وأضاءت فيها التقوى، ومتى ما عمرت البيوت بهذه السمات، وقامت على تلك الصفات، فإنه ينتشر أريجها، ويفيض طيبها على الآخرين، فتقوم بيوت المسلمين ومجتمعاتهم على هذا اللطف والعطف والتراحم والتلاؤم، والتسامح والتصافح.

أما إذا قامت البيوت على الغضب، وبنيت على الانتقام، وأترعت بالخصام

وحاربت **العفو**، وطلقت التسامح ؛ لا أب يرحم، ولا أم تحنو، ولا والد يشفق ولا والدة تترفق، ولا ابن يبر، ولا زوجة تغفر، ولا أخت تعطف، فإنه النكد والشقاء، والتعب والعناء، ولذلك يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

التغابن: ١٤.

يا الله، ما أروع هذا القرآن ! فها هو الحديث عن **العفو** حينما جاء ليلامس أسماع الأسرة المسلمة، استخدم كل الكلمات التي تؤكد المعنى، وتكثف الصور، ﴿**تَعْفُوا**﴾،

﴿وَتَصْفَحُوا﴾، ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ .. إشارة إلى أهمية هذا المثل للأسرة المسلمة، والبيت المؤمن، وخيركم خيركم لأهله .

وفيما يتعلق بالقضايا الأسرية أيضاً يقول سبحانه وتعالى عن النساء : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٧ .

وختاماً فقد بين المصطفى ﷺ أن أهم درجة وأعظم ربح يسعى إليه المؤمن في حياته،

ويعمل من أجله، ويبذل للفوز بـه هـو الطمـع بعفو الكريم، ومغفـرة الـرحيم فحيـنما تـسأله عائـشة - رضي الله عنهـا - : يـا رسـول الله : أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القـدر مـا أقـول فيها قال : «**قولي اللهم إنـك عفـو تحـب العفـو فاعف عني**» [أخرجه ابـن ماجـة (٣٨٥٠) وصـححه الألبـاني]، وهذا من جوامع الدعاء وكان مـن دعائـه ﷺ : «**اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي**» [أخرجه أبو داود (٥٠٧٤) وصححه الألباني]

وقد علمنا تعالى هذا الدعاء الجميل الذي يقول لنا فيه قد أجبـت ، قـد أجبـت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ

إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٦ . اللهم اعف عنا، واغفر لنا، واسترنا بسترك يا حيي يا ستير .

ولكم في القصاص حياة

ليس هنا مجال الشرح والتحليل وبيان أسرار الجمال والجلال والإيجاز والإعجاز في هذه الآية البديعة بل الجزء من آية. هذه الآية العظيمة التي وقف أمامها العظماء والبلغاء والعلماء فشرحوا مضمونها، وأبانوا عن مكنونها، ولكنني هنا أتحدث عنها بما يخدم هذه الرسالة؛ فقد أردنا منه أن يكون رسائل موجزة، ولمحات عابرة، وإضاءات نيِّرة.

أمتعني كثيراً كلام أهل العلم والبلاغة

عن هذه الآية، وأطربتني فصاحتها وبلاغتهـا، وسلاستها، ولكنني أدركت حقيقة إعجازهـا، وروعتها، وأسرارها وأخبارها وآثارها يـوم أن دخلت في هذا الميدان العظيم ميدان الـسعي في العفـو وإصـلاح ذات البـين، فـازددت يقينـاً بعظمة كلام رب العالمين، وبروعة منهـاج هـذا الدين الذي هو من لدن حكيم عليم.

ولا تقل عنها روعة وجمالاً وجلالاً وإعجازاً وإيجازاً الآية التي قبلها. وسوف أتحدث عن الآيتين بإيجاز؛ لارتباطهما ببعضهما ولأهميتهما في جلاء كثير من المسائل حول موضوع **القصاص**، والعفو، والدية وما إلى

ذلك يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ البقرة: ١٧٨ - ١٧٩ ، أي من قتل مسلماً عمداً وعدواناً وجب قتله حقاً لأولياء المقتول مماثلة بما فعل.

وهذا هو العدل بعينه، فمن حرم إنساناً من الحياة، ويَتَّم أطفاله، ورمَّل زوجته وأحزن قلوب والديه وأهله وذويه، فإن من العدل أن يكون الجزاء من جنس العمل، وهذا ليس فيه

مـن الظلـم شيء، كـما تـدعي بعـض المنـاهج والأنظمـة التـي تـرى أن في القـصاص غلظـة وقسوة ومخالفة لحقوق الإنسان، فهم نظروا إلى حال القاتـل دون أن ينظـروا إلى حـال المقتـول وما أصابه وأصاب ذويـه، ثـم إن هـذا القتـل، إضافة إلى أنـه عـدل، فهـو أهـم طريـق لحفـظ الأنفس، وصيانة الدماء، ورعاية الأمن.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ انظر إلى روعة الإسلام، وجمال المنهج، ومثالية هذا الـدين. إن هذه الآية منهاج أكمل، ودليـل أعظـم في بـث روح الأخوة وإصلاح ذات البـين والـسعي في العفـو؛ فهـا هـو تعـالى رغـم أن المـسألة قاتـل

ومقتـول، ودمـاء منثـورة، وأنفـس محزونـة، وأناس تتطلـع إلى الانتقـام وشـفاء الغـيظ مـع ذلك يسميه (أخاه) . فمن عفي له من أخيه ثم يعلمنا أنه حتى في تعاملنا مع هـذا الأخ القاتـل يجب أن تكون مطالبتنا له بـالمعروف والحـسنى إذا رضينا بالعفو والديـة، ومراعـاة ظروفـه إن كان معسراً ثم على الجاني أيضاً الأداء بإحـسان ولطف وصدق وحرص على الوفاء .

ثم اختيار كلمة ﴿عُفِيَ﴾ فلم يقـل فمـن أعطي أو أوتي بـل تـأتي هـذه الكلمـة الرقيقـة الجميلـة التـي تحمـل في طياتهـا معنـى العفـو والتسامح والرضا.

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ ، أي: إن هذا الحكم الرباني هو تخفيف من الله تعالى عليكم إذ أعطاكم كل الخيارات، وأباحها لكم، فأعطاكم القصاص لمن لا يريد سواه، وفتح أمامكم باب الفضل والتسامح والعفو لمن أراد أن يفوز بها عند الله تعالى، وأن يأخذ بأعظم الأخلاق، وأجل السمات وهي سمة العفو، وأباح لكم الدية لمن أرادها فيكون أخذ حظاً دنيوياً أباحه الله له، وأخذ حظاً أعظم وأجمل وهو العفو وإعتاق رقبة أخيه، وهذا التخفيف وهذه الرحمة ميزة وخاصية لهذه الأمة فقط ولم تكن للأمم السابقة قبلنا ؛ فقد كان لبعض

الأمم القصاص فقط، ولبعضهم العفو فقط ولبعضهم الدية فقط، أما أمة محمد ﷺ فأعطاها الله الثلاث.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي من أولياء الدم ممن عفا عن القاتل أو عفا عنه وأخذ الدية، ثم اعتدى عليه بعد ذلك فإن هذا يكون ظلماً وعدواناً ونكثاً يعذبه الله عليه العذاب الأليم.

ثم يقول تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، زيادة توكيد وشرح وإيضاح لسمو هذا التشريع وأهميته في حفظ حياة

الناس وأرواحهم ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه إذا أراد القتل أو أقدم عليه فإنه سيقتل كان في ذلك دافع له على التعقل والبعد عن هذا العمل، وكان فيه مانع من إهدار حياة الآخرين وبذلك تصان حياة الناس، ويحفظ الأمان، وتشيع الطمأنينة، هذا هو الحق والعدل والخير لأولي الألباب الذي يفهمون ويعقلون ويتدبرون.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ : يأتي هنا ربط الأحكام والتنظيمات والتشريعات بجانب المراقبة لله تعالى، والخوف منه، وإيقاظ الضمائر لتكون رقيباً على تصرفات الناس؛ فإن الأنظمة

والقوانين والتشريعات مهما كانت لا تؤدي الهدف المنشود على أكمل وجه حتى تكون معمورة بهذه الروح الجميلة، روح التقوى والمراقبة لله تعالى، والخوف منه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتعظيم حرماته.

وأعود بكم إلى ما بدأت به الحديث في أول هذه الآية حينما قلت: إنني من خلال ممارسة السعي في قضايا العفو زاد يقيني بعظمة هذه الآية، وبروعة هذا التشريع، وفهمتها حق الفهم.

إن القتل خلق شنيع، وتصرف مقيت،

وأمر بغيض. وقد ورد عليه الوعيد الشديد في كتاب الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٩٣.

وإن جريمة القتل تثير من الفتن والعداوة والشرور والفوضى والتشفي والانتقام ما لا حد له ولا نهاية، ولو تركت هذه المسألة دون علاج لها أو حد لتصرفات الناس لأحدثت خللاً كبيراً في حياة المجتمعات، ولنتج عنها فوضى عارمة، وهو ما نراه إلى اليوم في كثير من البلدان التي تتأصل فيها بعض العصبيات الجاهلية والأهواء القبلية ؛ إذ يقدسون مسألة

الثـأر والانتقـام التـي لا تقـف عنـد حـد، ويرسخون في الأجيال أن التهاون في ذلك ليس من علامات الرجولـة، وأن الإنـسان يجـب أن يأخذ حقه بيده ، فإذا ما حدثت حادثة من ذلك النوع ذهب ضحيتها بـدل الواحـد عـشرات ، فيأتي الإسلام ليضع حداً لذلك بإقامـة العـدل بإثبات حكم القصاص الـذي تـبرد بـه الغلـة، وتهدأ معه الثائرة، ويؤخذ به الحـق عـن طريـق ولي أمـر المـسلمين . ثـم يفـتح بـاب العفـو والتسامح ويرغب فيه ويـدعو إليـه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الشورى: ٤٠.

إن العفو والتسامح لا يقبل به كل إنـسان

فهنالك من الناس من لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ما قبل بها عوضاً فيمن فقده من قريب أو حبيب، وإن هنالك فتناً وحوادث قد يشب ضرامها، وتستمر نارها، ولا يطفئها إلا القصاص.

إن كثيراً من الناس كنا نأتي إليهم وبعضهم في حالة مزرية من الفقر والحاجة والعوز فنظل نعرض عليهم كل ما يتوقعون ومالا يتوقعون من الخدمات والعروض والأموال، ونأتيهم بكل أمنية، ونعرض عليهم كل شفاعة فيقول أحدهم والله لو عرضتم كنوز الدنيا كلها لا نقبل إلا القصاص، ولا يروي

غليلنا ولا يـبرد حـرارة قلوبنـا إلا القـصاص . وتظل نيران قلوبهم، وحـرارة أفئـدتهم، وثـورة أعـصابهم في أشـدها وأوجهـا ثـم إذا مـا نـالوا حقهـم بالقـصاص هـدأت أنفـسهم وسـكنت أرواحهم فـسبحان أحكـم الحـاكمين، وأرحـم الراحمين.

أذكر عجوزاً قتل ابنها وقد أمـضى القاتـل في الـسجن اثنتـي عـشرة سـنة، وهـو مـصاب بأمراض كثيرة وحالته مؤسفة، وتعـيش أسرتـه أسوأ أنواع الفقر فجئت إلى هذه العجوز آملاً في إقناعها بالعفو فإذا بها في حالة من الفقر المـدقع، وتسكن في منـزل شـعبي متهـدم، وإذا بطفلـين

معها بالدار ، فسألتها من هما ؟ قالت : هما ولـدا ابني المقتول، فبدأت معها بالحديث، واجتهدت في الوعظ والتذكير بكل ما آتاني الله من قـوة ثـم ذكرت لها أنني ممثل لـولاة الأمـر، وأنهـم جميعـاً يطلبون منك قبول شفاعتهم ويسألونك العفـو، وهم مستعدون جميعاً بما تريدين.

ثم أخذت أقنعها وأقول لها : إنـك سـوف تحـسنين إلى نفـسك وإلى أولاد القتيـل رحمـه الله بأن سـيأتيهم بعـض المـال يـشترون بـه مـسكناً مباركاً ويعيشون فيه حياة طيبة، ويتصدقون منـه عن والدهم ثم هي فرصة لك للفوز بأجر العفو فإذا بها تـرد عـلي قائلـة : جـزاك الله خـيراً عـلى

جهودك وسلم لي عـلى كـل مـن أرسـلك، أمـا العفو فوالله لـو ملأتـم مـابين الـسماء والأرض ذهباً وفضة ما قبلت به عوضاً عـن ولـدي، ولا تبرد لوعتي إلا **بالقصاص** ممن قتله!!!

لماذا نسعى بالعفو؟

هنالك تساؤل نسمعه بين الفينة والأخرى من بعض الناس، وإشكال قد يردده بعضهم؛ إذ يقولون: لماذا السعي بالعفو، لماذا تحولون دون حكم القصاص إن الأولى أن يقتل القاتل، وألا يسعى في العفو عنه.

فنقول لهؤلاء: إن الذي فرض القصاص هو الذي فرض العفو وأشرع أبوابه، وجعل للناس ميداناً يكسبون منه الأجر والثواب والرضا بما عند الله تعالى، وإن السعي في ذلك

منهج رباني وسنة محمدية لا تنافي الشريعة، بل هي من صميمها، بل إن هنالك من القضايا ما نرى وجوب مساعدة من ابتلي بها، والسعي في إنقاذ رقبته، نظراً لما نعرف للقضية من ملابسات، ونظراً لما نراه أحياناً من صدق الجاني وتوبته وندمه، فكيف يحرم مثل هذا من بذل الجهد معه قدر الإمكان، ومن الرفق به والرحمة.

أليس الله تعالى هو الغفور الرحيم الذي يغفر الذنوب لمن تاب ولو بلغت عنان السماء ؟ بل أليس هو الذي قارب بين المدينتين ليكون ذلك الرجل التائب أقرب إلى بلد التوبة وأعني

به الذي قتل مائـة نفـس، ومـضى يبحـث عـن التوبة فمات ليجد رحمة الله وعفوه وتوبته كما في الحديث الصحيح .

ثم إن هنالك ملحظاً آخر في غاية الأهمية يعتـبر ثمرة مباركة من ثمار العفو وهو حـصول عـدد من المكاسب، خصوصاً لمن قبل بالعفو والدية.

وأهم تلك المكاسب ما يلي:

١- **استبقاء نفس مسلمة** بـدل ذهـاب نفـسين، فلعل الله يجعـل في هـذا المعفـو عنـه خـيراً كثيراً، أو يرزقه أبناء صالحين ينفعون البلاد والعباد.

٢- **يكفينا حزن ومأساة بيت واحد** إذ ابتلاهم الله بقتل ابنهم أو قريبهم، ولهم الأجر من الله على الصبر والاحتساب، فإذا استطعنا ألا نشقي بيتاً آخر ونحزنه فذلك فضل من الله عظيم، فأعظم الأعمال سرور تدخله على مسلم.

٣- **قد تكون أسرة المقتول في أشد الحاجة والفقر** فإذا يسر الله لهم من أهل الخير ومن أولياء الجاني مبلغاً مباركاً معقولاً فإنهم يخرجون من حالة الفقر والضيق وذلة المسكنة، ويتصدقون عن ميتهم الذي هو بأمس الحاجة إلى الحسنة الواحدة وربما

جعلوا له أوقافاً، أو صـدقات جاريـة يأتيـه أجرها إلى قيام الساعة.

٤- **بدلاً من حرمان أسرتين مـن أسر المـسلمين** بفقد أبيهم أو راعيهم يكفـي حرمـان أسرة واحدة، ويظل للأسرة الثانيـة وليهـا الـذي أخذ درساً جليلاً في الحيـاة لـن ينـساه، ثـم الأسرة الأخرى التي عفـت عنـه لعـل الله يحفظها ويصونها بسبب عفوهـا وتـسامحها ويخلف عليها خيراً.

٥- **إن بعض القضايا يظل حولها مـن الغمـوض ومن التساؤلات** حول المقتـول مـا يـستدعي

من أولياء المقتـول أن يراقبـوا الله في ذلـك، وأن يأخذوا بجانب العفو الذي هو الكـمال والجمال وصفة رب العـزة والجـلال ؛ فقـد يكون العفو عن القاتل- سواء بدية أو بغير ديـة - أعظم إحسان وأعظم مكافـأة تقـدم للمجني عليه، فلعـل الله يرفعـه بـذلك إلى أعلى عليين .

٦- **بعض القضايا يكون القاتـل والمقتـول مـن قرية واحدة** وأحياناً مـن أسرة واحـدة، بـل ومن بيت واحد، فـإذا مـا أخـذوا بجانـب العفو فإن ذلك له من الآثـار الحميـدة عـلى الأسرتين مالا حد له، بخـلاف إذا أخـذوا

بالقصاص فستبقى حرقة وقطيعة يندر أن تُنسى.

ثم إن اللجنة لها ضوابط مهمة في مسائل العفو من أهمها:

أ - عدم السعي في بعض القضايا التي لا يسوغ العفو فيها ولا يليق، كقاطع الطريق، أو الذي يرتكب فاحشة اللواط بشخص ثم يقتله، أو الذي يهتك عرض إنسان ثم يقتله في داره وعلى فراش أهله، وما إلى ذلك من القضايا المزعجة، نسأل الله السلامة.

ب - عدم القبول بالمبالغة في العوض

والديات أو المتاجرة بالرقاب، فاللجنة لا تقبل من ذلك إلا ما كان معقولاً مقبولاً.

وهنالك ضوابط أخرى ذكرناها في محلها في كتاب «لموع ودموع» وبالله التوفيق.